

ملامح السخرية في رواية المتشائل لإميل حبيبي

امير فرهنغنيا*

علي پورحمدانيان**

الملخص

السخرية من الإبداعات الأدبية التي استخدمت في العصور السالفة حتى الآن. قد يظنّها المتلقّي الاستهزاء بقصد الخطّ من شأن الآخر، وهذا صحيح إلى حدٍ ما والأصحّ منه هو أنّها لا تستخدم لتلبية الأهواء النفسية كالدعابة والضحك فحسب بل تبيّن للمتلقّي الوضع الاجتماعي والسياسي والثقافي الذي عاشه المؤلف وعانى منها المجتمع ولاستخدام السخرية أسباب كثيرة من أهمّها تكميم الأفواه حيث لا يستطيع الأديب أن ينتقد ما يراه من ظلم وخطأ أو سياسة فاشلة بالعلن، فعندئذ يتخذ السخرية منصة للتعبير عما يريد. المتشائل من الروايات التي استخدمت فيها السخرية ولكن ليس هذا خوفاً من سياسات الكيان الصهيوني وكأتمّا لم ير الروائي طريقة أفضل منها حيث إنّها لم تؤلّف على النمط السخري فحسب بل هو نمطٌ سخريٌّ لاذعٌ ومأساويٌّ يحمل رسالة توضّح للقارئ ظروف فلسطين وشعبها. يسلم المقال الضوء على الرواية وكيفية استخدام السخرية فيها وفقاً للمنهج الوصفي - التحليلي وبما أن إميل صوّر لمحات عديدة من ظروف

* أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الشهيد بهشتي (الكاتب المسؤول)،

a_farhangnia@sbu.ac.ir

** طالب الماجستير، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الشهيد بهشتي، ali.purhamdaniyan@gmail.com

تاريخ الوصول: ١٣٩٨/٠٨/١٥، تاريخ القبول: ١٣٩٨/١١/١٢

الشعب الفلسطيني، يرسى هذا الموضوع علاقة وثيقة مع الأدب المقاوم وتحتلّ ضرورة البحث في أهمية القضية الفلسطينية وعدم التغافل عنها دينياً وإنسانياً وأنها رواية أحدثت ضجة في العالم والكيان الصهيوني فمن البدهي أنها احتوت أفكاراً جديدة تستحق الدراسة. يهدف هذا البحث إلى تبين كيفية استخدام السخرية وأغراضه عند حبيبي ودورها في نجاح عمله وبما أنّ الأديب الفلسطيني يستخدم كافة الأنماط للتعبير عن مأساته وآلامه يكشف هذا البحث عن براعة استخدام التروائي حبيبي السخرية كنمط يعبر به عن أفكاره وآرائه. ومن المواضيع الهامة التي تطرّق إليها المقال من خلال الرواية، أزمة الهوية الفلسطينية وموقف العرب من قضية فلسطين وسياسات التثقيف وتحكي أن الكاتب استخدم السخرية لوصف الوضع السائد في فلسطين والحطّ من الكيان الصهيوني.

الكلمات الرئيسية: السخرية، الرواية الفلسطينية، المتشائل، إميل حبيبي.

١. المقدمة

السخرية من الطرائف الأدبية التي تتجذّر في قديم العصور وتحتلّ مكاناً واسعاً في كتب الأدباء ودواوين الشعراء. بما أن الأدب كان وما زال بمثابة بوق يعكس آلام المجتمع وأوجاعه ومشاكله، لم تكن السخرية مستثنية من هذا الأمر، فاستخدمت السخرية على مرّ العصور إلى أن وصلت العصر الراهن. تناول الأدب القضية الفلسطينية بكافة طاقاته من رواية وشعر وما إليها من أنواع الفنون الأدبية كي يؤدي دوره الوظيفي أمام هذه القضية. هي قضية شعب عانى من التشريد والظلم حيث إنه واجه أزمة في أهمّ ما يمتلكه الإنسان وهي الهوية. استخدم كثير من الشعراء الفلسطينيين السخرية لتعبيرهم عن الظروف والوضع الفلسطيني لكن في مجال الرواية تعدّ رواية «الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل» من الروايات التي خطفت الأضواء في معظم البلدان وعبرت عن صرخات قوم أحسدوا على هويتهم وافتقدوها وقدّمت الرواية لحة عن الهوية الفلسطينية وما عانت منه في إطار سحري ومأساوي. في الوقت نفسه تكون السخرية من الأنماط التي استخدمها إميل حبيبي للتعبير عما رآه الشعب الفلسطيني من ظلم وجور وعمّا لاقاه هؤلاء العباقرة الأفاضل

من سياسات تكميم الأفواه والرجح في السجون الغاشمة وما إليها من تعاذيب بشعة خوفاً من سياسات الكيان الصهيوني لكن المستخدم لهذا النمط خاصة في العصر المسمى بعصر التكنولوجيا والتطور قد يرى مجالاً واسعاً أو بالأحرى أفضل بمقايسته مع العصور السابقة لإلقاء كلمته في المجمع الخاصة أو العامة من نقد وإظهار رأي وما إليها من مظاهر الحرية. لكن يصل الأمر بعض الأحيان إلى منتهاه ويبلغ السيل الزبي حيث لا يأبى الأديب الخوف من شيء بل يكرس كافة طاقاته ومساعي جهده كي يعبر عن آلامه وأوجاع مجتمعه ليلفت نظر الجميع وهذا هو السبب الرئيس لاستخدامه النمط السخري. «ولا تقف أهداف السخرية عند إضحاك الآخرين، أو الترويح عنهم، أو قطع أوقات فراغهم للتسلية - كما أشرنا - فتلك رؤى سطحية مبتذلة وهي للسوق العامة، لكن السخرية الفنية لها أهداف تربو على ذلك.» (الذياني، ١٤٣١: ٤٣). يهدف هذا البحث إلى تبين كيفية استخدام السخرية و أغراض استخدامها عند الروائي الفلسطيني إميل حبيبي و دور السخرية في نجاح أثره. فإنّ من المواضيع التي يوجّهها بشكل سخري مرّ ولاذع للمتلقي هي سياسات التثقيف الصهيونية، الوضع الاجتماعي السائد وأزمة الهوية الفلسطينية ويصوّر لنا أيضاً الصمود الفلسطيني حيث إن التخطيطات الصهيونية لا تجدى خيراً في النهاية وقد توصل البحث إلى نتائج منها، أن الكاتب استخدم السخرية لتبيين الواقع الثقافي، الاجتماعي ولم يغفل عن الوضع السياسي الذي يعاني منه الفلسطيني حيث «لاتقتصر السخرية في اشتغالها على المجال الاجتماعي فحسب، بل إنّها تخدم جيداً الفكر السياسي» (العزوي، ١٤٣٩: ٤٧). صوّر لنا الروائي واقعية الأحداث أي سوداوية العيش والظلم ضمن أنه لم يغفل عن التزام وولاء الفلسطينيين للوطن. اعتمد هذا المقال على المنهج الوصفي - التحليلي.

١.١ أسئلة البحث

١. ما هي أغراض استخدام السخرية في رواية المشائل؟
٢. بم تمتاز أنماط السخرية في هذه الرواية؟

٢.١ الفرضيات

١. استخدم الروائي السخرية للتعبير عن الأفكار والآراء التي تدور في خلده وهي تبيين موقفه وموقف العرب من قضية فلسطين وأزمة الهوية وسياسات تكميم الأفواه والوضع الاجتماعي في فلسطين والمشاكل والمعاناة التي عاشها الشعب الفلسطيني إثر الاحتلال.
٢. لم يستخدم الشاعر السخرية للفكاهة والضحك، بل تظهر السخرية في رواية المتشائل لإميل حبيبي لاذعة ومرّة، وعلى الرغم من أنّها تثير حزن وعطف قارئها لكنّها تحفز القارئ إلى الاستمرار بقراءة الرواية دون أن يشعر بملل وتعب.

٣.١ خلفية البحث

هناك كتب عديدة حول السخرية منها «السخرية في أدب الجاحظ» للسيد عبدالحليم محمد حسين، يعد هذا الكتاب من المصادر الهامة التي تحدّثت عن السخرية، طبع هذا الكتاب عام ١٩٨٨ للمرة الأولى بواسطة الدار الجماهيرية في ليبيا. يحكي الكتاب في بابه الأول عن حياة الجاحظ وفتنه وعصره وفي الباب الثاني يعالج السخرية في آثار الجاحظ معالجة تامة و يتحدّث كذلك عن عوامل نبوغ الجاحظ في الأدب الساخر، أما الباب الثالث فهو دراسة حول رسالة الترييع والتدوير. يعدّ الكتاب من الكتب الناجحة التي ألّفت حول السخرية واستخدامها في الأدب القديم. هناك كتاب آخر يحمل عنوان «السخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري» لنعمان محمد أمين طه، طبع هذا الكتاب عام ١٩٧٩ بواسطة الدار التوفيقية للطباعة بمصر. بعدما يقدّم الكاتب مقدمة شاملة عن مفهوم السخرية، دواعيها، ومقوماتها، يلقي نظرة عن السخرية في البلاغة العربية. من أهم الموضوعات التي سلّط الروائي الضوء عليها هي صور السخرية وأساليبها بحيث يقدّم لنا السخرية بالصوت أو بالتهكم أو إلى ما إليها من العناوين الفرعية. صيغ السخرية وظهورها عند الأوروبيين والأعصر المختلفة في الأدب العربي من الموضوعات الهامة الأخرى التي لم يغفل عنها الكاتب. رغم أننا نرى في بعض الأحيان أبواب مخصصة لنمط السخرية في بعض الكتب الأدبية، لكنها لم تنطرق إليها بشكل تخصصي وهناك مقالات نقدية وأدبية في هذا

المجال. منها مقالة «السخرية في تراث العرب» للأستاذة شهيدة العزوزي وهي المنشورة سنة ١٤٣٩ في مجلة آفاق الثقافة والتراث في العدد ١٠٠، ٣٨-٥٠. بحيث إن الباحثة تطرقت إلى مفهوم السخرية عند التوحيدى وإبن هارون وإبن مقفّع والحجاج بن يوسف. نقلت الكاتبة رسائل تتعلّق بمؤلّاء الأدباء وبعد الشرح والتحليل وإلقاء نظرة على أهداف كل منها، بدأت تسلّط الضوء على الجوانب السخرية التي شوهدت في الرسائل. ومقالة «درجات السخرية في الشعر العربي» لخليل الموسى وهي المنشورة سنة ١٤٣٣ في مجلة المعرفة عدد ٥٨٦، ٣٥-٤٥. تناول الباحث بعض الشواهد الشعرية وتحدّث عن السخرية فيها وتوصّل إلى أن كل من الأدباء استخدموا السخرية لأغراض عديدة منها الكشف عن عيوب الآخر، وصف الحرص و الهلع في الحياة، الاستهزاء من الآخر وأهمّها هي التعبير عن المساوى التي تحيط بالشاعر وعندئذ يكون بصدد التعبير عنها وفيما يتعلّق بإميل حبيبي وآثاره بإمكاننا أن نشير إلى قراءة في رواية المتشائل، مأساة شعب وأزمة هوية: رواية الوعي والوعي المضاد لعائدة فحماوي في مجلة موسوعة أبحاث ودراسات في الأدب الفلسطيني. تتطرق الباحثة فيها إلى البنى الأسلوبية التي اتخذها الروائي وكيفية استخدامه للرمز وتعبيره عن القضايا وتوعيته للمجتمع. يعد هذا المقال من أهم الدراسات التي قامت بتحليل رواية المتشائل بحيث أن الكتابة تقف على عتبة العنوان و تقوم بتحليله وكذلك دور المرأة و الوضع الاجتماعي والسياسي السائد الذي قام حبيبي بتوضيحها في الرواية. ومقالة «هاجس العودة في قصص إميل حبيبي» لحسني محمود المنشورة سنة ١٩٨٤ في مجلة الفصول، ٢٠٢-٢٠٥، عالج الكاتب قصص نورية وسلعون لإميل حبيبي كما أنه لم يغفل عن إبداعات الكاتب والإتيان ببعض شواهد من الروايات وتحليلها وتمّ ذلك بعد تقديم مقدمة حول القصّتين وعرض أنماط السخرية في الشخصيات ومن ثمّ يحكي الكاتب عن العالم القصصي لإميل حبيبي ودور السخرية في تعابيره. ومقالة «المرأة الفلسطينية بين اللجوء والعودة في رواية الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل» لوفاء زيادي، المنشورة سنة ٢٠١١ في مركز بديل/المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين وتطرقت فيه الباحثة إلى موقف يعاد، يعاد الثانية، مستشهدة بالرواية وقدّمت تحاليل دقيقة وشاملة حول دور المرأة في الرواية. هناك أطروحة دكتوراة للطالب مسعود شكري تحمل عنوان (صورة الأنا والآخر في الرواية الفلسطينية

المقاومة؛ «المتشائل» لإميل حبيبي و«البحث عن وليد مسعود» لجبرا إبراهيم جبرا نموذجاً،
نوقشت هذه الأطروحة عام ١٣٩٦ في جامعة تربيت مدرس وهدفت إلى رسم صورة الأنا
والآخر بأنواعه المختلفة في الروايتين المذكورتين لإميل حبيبي وكذلك الاختلاف بين نظرة
الروائيين حيث منهم من ينظر إلى الأنا وهو يتعايش معه والآخر ينظر إليه من بعيد ومن أهم
النتائج التي توصلت إليها هذه الأطروحة، هو أن الصراع يدور في روايات جبرا إبراهيم جبرا
حول القضايا الفكرية والنفسية والصّياغ ولم يأل الأديب جهداً للآخر أو رسم صورته لكن
كرّس مساعي جهده كي يرسم لمتلقّيه الأنا الفلسطيني صورة دقيقة. فمن خلال ما تقدم تبين
أن السخرية في رواية المتشائل لم يتمّ تناولها في مقال أو دراسة جامعية لحد الآن وهذه أولى
خطوة في هذا المجال.

٢. إميل حبيبي ورواية المتشائل

إميل حبيبي روائي ومسرحي وكاتب قصّة قصيرة وصحفي وألّف كتاب العرب في فلسطين وتثير
مقالاته السياسية الكثير من الجدل والنقاش. «يشكل إميل حبيبي علاقة متميزة في مسيرة
الأدب الفلسطيني الحديث، حيث يصف أدبه بأنه أدب المقاومة وهو من شعراء الأرض
المختلة وكتّابها الذين لا يعبرون فقط عمّا في أعماق الإنسان الفلسطيني الصامد بل لأنهم في
طليعة حركة الصمود وخط الصدام اليومي مع الكيان الصهيوني.» (زبادي، ٢٠١١: ٩). له
آثار متعددة وبدأ بنشر أجزاء مختلفة من أعماله في الصحف والمجلات ونشر عمله الأول
ككتاب سداسية الأيام الستة عام ١٩٦٨ وبعده تابعت الأعمال: الوقائع الغريبة في اختفاء
سعيد أبي نحس المتشائل (١٩٧٤)، لكع بن لكع (١٩٨٠) ثمّ أخطية (١٩٨٥) وأخيراً
خرافية سرايا بنت الغول (١٩٩١). «هذه الرواية التي ترجمت لعدّة لغات، أظهرت حبيبي
كروائي له خطّه المتميّز، والذي أرسى بصمة خاصّة في عالم الرواية الفلسطينية والعربية.»
(فحماوي، ٢٠١١: ٤٠).

الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي نحس المتشائل هي رواية ملأت بصداها الآفاق من
الغرب إلى الدول العربية وما عتّم أن ترجمت إلى ثمانية عشر لغة حية من اللغات العالمية.

تشمل هذه الرواية قصة حياة أبي النحس المتشائل في سياقٍ روائي ويقسم المؤلف الكتاب إلى ثلاثة فصول. الفصل الأول يسمّى يعاد. يعرف أبو سعيد نفسه في هذا الكتاب ويقدم قصة حياته للقارئ. من هو أبو سعيد؟ أبو سعيد هو أحق من عائلة تختلف مع باقي العوائل تماماً في نسبها وسياق حياتها مع كافة البشر وهو عميلٌ للكيان الصهيوني، لا يستطيع أن يحرك أي ساكنٍ في حياته دون إذن رؤسائه في الدائرة الاستخباراتية ويعبر سعيد في هذا الفصل عن حبه لفتاة تسمى يعاد. يتهم أبو سعيد في هذا الكتاب بالوشاية في قضية قتل أبي يعاد لكنه يثبت لها بأنها مجرد تهمة وهو لا يد له في ذلك وتسجن يعاد أيضاً لاجتياحها القوانين الصهيونية المختصة بالإقامة. في الفصل الثاني يسلط الكاتب الضوء على وجه الشبه الكائن بين قصة حياته وقصة كانديد لإدورادو. يتزوج أبو نحس من باقية ويظل المتشائل يبحث عن كنزٍ ورثته باقية من أهلها. يصور أبو النحس في هذا الكتاب سياسة تكميم الأفواه والظلم والاضطهاد الصادرة من الكيان الصهيوني على المجتمع، ومن أحداث هذا الفصل، يكبر «ولاء» ابن يعاد ويقرر الانتحار. في الفصل الثالث، يبقى سعيد وحيداً ويصف صعوبة التخلص من التعامل مع الكيان الصهيوني حيث يشبه حياته بخازوق لا يستطيع أن ينزل منه إلا أن تأتيه معجزة من السماء. يُتهم أبو النحس بالاستهزاء لمواقف وقوانين الكيان الصهيوني ويُرمى به إلى سجن يلتقي فيه بسعيد الشاب الفلسطيني المهذب والناشط في الدفاع عن وطنه ويلتقي المتشائل بعد الخروج من السجن بيعاد الثانية وهي بنت يعاد حبيبته الأولى ويقرر أن يفر من عين الدولة، فيذهب إلى قرية نائية من قرى فلسطين لكن يقتحم الصهيونيون المنزل ويأخذون يعاد من بيتها إلى السجن وأخيراً يطير أبو النحس مع الكائن الفضائي الذي كان يكلمه بعض الأحيان لا يدركه أحد إلا الفضاء اللانهائي ويلتقي هناك بسعيد الشاب وأخته وكل من صادفه في حياته.

٣. المفاهيم والتعاريف

يتناول الباحثان في هذا القسم معنى السخرية ودلالة عنوان هذه الرواية التي يضم بين دفتيها مضمون السخرية ومن ثم يناقشان أزمة الهوية في هذه الرواية.

١.٣ معنى السخرية

«تتخذ السخرية طرائق واتجاهات متعددة وكلها تؤدي غرضاً واحداً وهدفاً محدداً، فقد يكون هدفها الإضحاك والترويح عن النفس المهمومة وقد يكون هادفاً وهدفها إصلاحاً ومن أهم طرائق السخرية: بيان العيوب الاجتماعية والتلفيق أو الادعاء وبيان العيوب الجسدية ومجابهة الشخص بعكس ما يتوقع ومن ذلك سرعة الجواب الساخر» (طه، ١٩٧٩: ٤٣). استخدمت مشتقات هذه اللفظة في التنزيل الحكيم ﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾ (هود/ ٣٨) من مادة سَخَرَ يسخر من شخص بمعنى هزئ به ولدَّعه بكلام تهكمي واحتقره. «تعتبر السخرية طريقاً خاصاً للتعبير عن القضايا التي تدعو إلى الانتقاد في الجامعات بلغة ساخرة ملؤها الضحك والمزاح. إنها طريقة من طرق التعبير، يستعمل فيها الشخص ألفاظاً تقلب المعنى إلى عكس ما يقصده المتكلم حقيقة، وهي صورة من صور الفكاهة تعرض السلوك المعوج أو الأخطاء التي إن فطن إليها وعرفناها فنان موهوب تمام المعرفة، وأحسن عرضها، تكون في يده سلاحاً مميّزاً.» (غراب، ٢٠١٠: ٢٤). تحتوي السخرية في الأدب على توليفة من النقد والهجاء والتهكم والدعابة يستخدمها الأديب للتعبير عن القضايا التي تدعو إلى الانتقاد في المجتمعات بلغة ساخرة مليئة بالضحك والدعابة. هذا الفن من الأدب هو مرآة سحرية تنعكس عليها الحقائق المرة في المجتمع بصورة عذبة تجذب قلوب المخاطبين وتضحكهم أولاً وتحتّمهم على التفكير والتدبر والاعتبار ثانياً (مسبوق وآخرون، ١٤٣٧ هـ.ق: ٩٥). لعلّ كثرة التعاريف التي أقيمت في التعريف الاصطلاحي للسخرية، تدلّ على كثرة الأهداف التي تستخدم السخرية من أجلها ولهذا يقول البعض أنها تطرح بقصد خلق روح الدعابة والضحك أو هي تعبير عن آلام المجتمع ولكن التعريف السابق للسخرية هو أجدد وألصق تعريف تنطبق كافة جزئياته على ما نحن بصددده في هذا البحث.

٢.٣ دلالة العنوان

لا شك أن عنوان الرواية من الدلالات التي تشير إلى ما ضمت من مواضيع بين دفتيها أو بالأحرى ترتبط بتلك المواضيع. قد يكون العنوان فصلاً من الفصول أو أحد شخصيات

الرواية أو المواضيع الرئيسية التي يدور البحث حولها. قد يلاحظ أن الأديب أبدع حتى في عنوان هذه الرواية حيث إنه أتى لها بلفظ جديد تماماً. «يفتح العنوان أفقاً لدى المتلقي قارئاً كان أو مستمعاً، بناء على كلمات العنوان، فتتكوّن لديه فرضيات، فهو لا يدخل فضاء القراءة صفحاً بيضاء، وإنما لديه ذخيرة مكوّنة قبلاً، تدخل فيها معرفته بمقاصد الكلام، وأدوات التواصل اللغوية والرمزية، وتجاربه القرائية السابقة، وما يعرفه عن الكاتب، أو الشاعر، وظروف الإنتاج» (بازي، ٢٠١٢: ٧٤). فحينما نواجه مفردة المتشائل، أول سؤال يحفزنا حول الرواية هو أنّ من هو المتشائل؟ أو ما السبب لتسميته المتشائل؟ وعنوان الوقائع الغريبة في اختفاء أبي سعيد المتشائل، نفسه يستخدم النمط السخري حيث حينما يواجه القارئ هذا العنوان يشعر أن الأسلوب المستخدم في سرد الرواية، أسلوب سخري كعنوانها. يتلقى القارئ خلال العنوان أنه يواجه نصاً لا يتقيد بالتعقيدات اللفظية والمواضيع المملّة والمتعبة لأنه يتعون بالفاظ عامة ومنها لم تستعمل سابقاً على الإطلاق وهو لفظ "المتشائل" ونفس هذا الاستخدام يثير الضحك والسخرية في الوقت نفسه «وقد يكون العنوان بلفظتين تظهران السخرية و"قد يكون في عبارة أو جملة تظهر تلك السخرية ولكن أقوى تلك العناوين ما يتشكل من لفظة واحدة.» (الخطيب، ٢٠١٤: ١٢١). ضمّت مفردة المتشائل طاقين في نفس واحد، بحيث إن وقوع المفردتين المتضادتين تدلّ على السخرية. فكيف لهما لو أنّ الباحث أدغم المفردتين ببعض وأنتج مفردة لم تكن تستخدم من قبل؟ فالسخرية هي أن القارئ يقدّم شخصية متفائلة ضمن أنها متشائمة وإضافة إلى ذلك أنها أبو النحس وتريد على التشاؤم «وكلمة المتشائل التي تجمع بين مفردتي التفاؤل والتشاؤم، وقدّمت التشاؤم على التفاؤل حتى يرفد الأول الآخر بقدر أكبر من الحرص والحيطه والتأمل، فالحالة التي تبلورها الرواية هي حالة تشاؤم شعبي مبني على واقع رديء، لكنها مفتوحة في الوقت نفسه على أمل ضمني مضمّر يشي به الحرفان الأخيران من الكلمة والمستمدان من مفردة التفاؤل.» (حافظ، ١٩٩٦: ١١٥). لكن إذا أمعنا النظر في الجمع بين التفاؤل والتشاؤم، نرى أنّهما لفظين متضادين تماماً وهذه الظاهرة تدلّ على حالة من الإبهام والغموض في شخصية الرواية البطل اللابل وكما نقرأ في إحدى الدراسات «حبيبي كان واعياً لأهمية العنونة في عملية

الكتابة. يظهر ذلك في عناوين أعماله التي اتسمت بخصوصية وجاذبية خاصة، استخدم فيها تقنيات متنوعة ويؤكد ذلك على اعتماده أيضاً على عناوين داخلية أو فرعية في داخل أعمالها كذلك بتوظيف عتبات النص المختلفة. «(فحماوي، ٢٠١١: ٤٠). إذن يشعر المتلقي بشيء من الاضطراب حين قراءة الرواية ويظهر هذا في كل سطر وفقرة منها ولعلّ تفاؤل سعيد ينجم عن بقائه في أرضه وعدم الخضوع لحكم الصهيونيين في التخلي عنها وتركها وقد يظهر الجانب التفاؤلي لهذه الشخصية في انقلاعه عن الصهيونيين وأمّا الجانب التشاؤمي لسعيد فهو واضح في تعامله مع الكيان وكونه عميلاً لهم وكأتمّما يترسّب هذا الاضطراب إلى الأحداث مثل التشرّد والانتقال من مكان إلى مكان آخر.

٣.٣ الهوية

مما يعالجه الباحثان فيما يخصّ الهوية في هذا القسم، الأزمة والضياع والإشكالية في هذه الرواية.

١.٣.٣ أزمة الهوية

«الهوية في معناه اللغوي من (الهو) وهي تتصل بالعمق المتأصل في النفس البشرية كما أنّها تعني العشق فيما تعلق بالخير والشر وإظهار الرغبة إلى الشيء ومحبة الإنسان فيه وتغلبه على ما في قلبه وهي صفات الإنسان وحقيقته وأيضاً تستخدم للإشارة إلى المعالم والخصائص التي تميّز بها الشخصية الفردية» (توفيق، ٢٠١٧: ٢). «إن من أبرز الوظائف المتصلة بمسألة الهوية: أ) الوظيفة الاستمرارية لموروثات الجماعة (حفظ التاريخ)؛ ب) الوظيفة الانسجامية التي تتجلى من خلال الدور الكبير الذي تقدمه في سبيل خلق تجانس وتقارب وتداخل وانسجام فكري واعتقادي بين الناس، سواء داخل الوطن الواحد أو خارجه؛ ج) الوظيفة الدفاعية وفيها تتحول الهوية إلى جنسية أصيلة دورها الحفاظ على الثوابت الوجودية للجماعة» (المصدر نفسه، ٦-١٢). أزمة الهوية من المباحث الهامة التي لم يغفل عنها الأدب بكافة مقوماته وقد تتجلى في مواجهة الدول الإسلامية للاستعمار الغربي حيث تظهر الهوية

بتحقّق الذات في الوجود الجماعي، فهي ليست إلّا جوهر الإنسان وهي التي لا محلّ للإنسان سواها ويشعر بالعدم والنقص دونها. فهي ميزة الإنسان عن الآخر وهي نقطة هامة يعطف الإنسان نحوها حين مواجهته المخاطر والاضطرابات التي تتناهبه. يتشابك الشعب الفلسطيني اشتباكاً دائماً مع الكيان الصهيوني وذلك من أجل إثبات الهوية ومفهوم الوجود. لو وضعنا الأحاسيس على جانب وتناولنا القضية من منظور علمي فالشعب الفلسطيني لا محلّ له في مجتمعه أي لا يستطيع أن يحرك أي ساكن فكيف له يظهر ويفعل هويته داخل المجتمع ولو أنه لا يتخلّى عنه ويحاول أن يتمسك بها مهما تفاقم الأمر.

إنّ أبو النحس المتشائل نموذجٌ للهوية الفلسطينية التي لم يبق لديها شيء إثر الأحداث التي جرت في فلسطين وهي متقلبة تمام القلب حيث تنتمي إلى الحزب المحتل ومن ثمّ تسبّه وبالتالي تنتقل من بلد إلى آخر. فمن الواضح أن هذه الشخصية مضطربة بمعنى الكلمة. «فهو يعيش الواقع الذي يعيشه، والرسائل التي يكتبها تظهر ردّه العميق على هذا الواقع. ربما كان اختياره للخلاص من هذا الواقع مستفزاً للقارئ الذي يتوقع شخصية فلسطينية مقاومة فيافاجاً بأنّها شخصية جمعت كل العيوب حتّى التواطؤ مع الدولة الجديدة ولكنها أيضاً جمعت المتناقضات المتصارعة (فحماوي، ٢٠١١: ٤٥-٤٦).

٢.٣.٣ ضياع الهوية

يستخدم الكاتب السخرية في بدو كتابته للرواية حيث يواجه القارئ هذه الشخصية التي تثير السخرية والضحك وفيما يلي نأتي بنماذج من السخرية التي استخدمت في شرحها وفي تعريفها للقارئ في الرواية:

هذه هي شيمة عائلتنا، ولذلك سمّيت بعائلة المتشائل، فالمتشائل نحت من كلمتين، إختلطتا على جميع أفراد عائلتنا منذ منطلقنا القبرصية الأولى... (حبيبي، ١٩٨٩: ٢٢).

«فلم أفهم كيف اعتبروني أهبل حتى معركة الانتخابات الأولى حين فهمت أن كلمة «مديناه» بالعبرية تعني «دولة» بالعربية... وأكبر دليل على ذلك أنني كنت آخر من تحقق من أعضاء اللجنة أن المرحوم كيوورك كان يقدم لنا في مطعمه، لحم الحمير. فنطعم ونشكره» (المصدر نفسه، ٥٧). وهذه الشواهد تدل على ضياع الهوية التي تجسدت في أبي النحس

المتشائل ضمن أنه لا محلّ له من الإعراب وعدم حضوره واطلاعه على مايجرى دلالة على أنه فاقد الهوية وإلا لسمع شيئاً من أحد ما أو استخبر عما يجري حوله «وقد استخدم الكاتب الساخر الرواية في جميع الغايات التي يتغيها الأدب الفكاهي كالتعريض، وتصوير عيوب المجتمع، ونقد الأوضاع والتقاليد الشائعة، ومناهضة الاستبداد والنظم السياسية القائمة، كما استخدمت القصة في السخرية من النوع الإنساني نفسه.» (شرف، ١٩٩٢: ١١٤).

ولكنني لم اقول، أبداً، على توجيه تحية إليها في برنامج «سلام وتحية» الإسرائيلي... فأمسح الدموع من عيني في غفلة الجهاز، حتى لم تبق إذاعة عربية إلا أذاعت مثل هذه البرنامج. هذه تبدأه «راجعون، راجعون» و... أخرى؛ «يا مرسل المراسيل عالدرب قريبة. خذ لي بدربك هالمنديل وأعطيه لحبيبي»، حتى احتلظ الحابل بالنابل، فضاعت يعاد كلياً (حبيبي، ١٩٨٩: ٨١).

يحاول حبيبي أن يوصل لنا رسالة الضياع بكافة الطاقات وبأصدق العبارات وبلفظ سحري لاذع كما قلنا والفقرة السابقة تنطبق على هذا الحكم تماماً حيث أشار فيها إلى دور الإعلام في فقدان هذه الهوية حيث إن كلاً من منصّات الإعلام العالمية كانت تنظر إلى القضية من منظورها السياسي ومطامعها الراهنة آنذاك وصارت الهوية تتبّعاً لهذا الأمر لعبة للكيان الصهيوني وأدى هذا الأمر بأزمة هوية عنيفة يصعب قبولها واستخدام الكاتب «اختلظ الحابل بالنابل» يزيد من سوقية لفظه وسخرية خطابه في التعبير عن الأزمة المعنية وأما «فضاعت يعاد كلياً» فهذه هي من أروع الاستخدامات التي تعبّر هذه الرسالة بتمام الوضوح حيث «إن يعاد رغم أنّها شخصية مضطربة في الرواية «لكنها رمز إنتظار الأرض والوطن والأرض والعودة» (مناصرة، ٢٠٠٢: ١٢٦). فضياعها ليس إلا ضياع الوطن والأرض والهوية. فالأرض وعلاقة الفلسطيني بها أمران لا يفترقان وانطباق هذين الأمرين مشهود في كافة الأعمال الأدبية التي تخص فلسطين وأراد إميل أن يبيّن شدة أزمة الهوية في ضياع يعاد وليست يعاد إلا أنّها متمثلة للهوية الفلسطينية. «وفي الصباح اليوم التالي نزلت إلى شارع الملوك حيث استقبلني الادون سفشارشك على عتبة مكتبه، وهو في ثياب الجنديّة. فنقدني عشر ليرات صحاح وقال: أبوك خدمنا، خذ هذه وكل!» (حبيبي، ١٩٨٩: ٥٧). قد يريد الكاتب أن يصور بهذا النمط السحري بعض الفلسطينيين الذين أجبروا على التعامل والتواطؤ

مع المحتلين كي يكونوا في مأمن منهم وهذا أولى حيث إن الشخصية تحتوي على خصال كثيرة نشاهدها في مواقف أخرى من الرواية ولذلك نرى أن السخرية ظهرت جلياً في الشواهد السابقة حيث إنه يحمده على أنه صار في طول واحد مع الجندي دون قوائم الحمار أو في الأسلوب كاستخدام «خذ هذه وكل» وفي المفردات وما إليه. إميل حبيبي من الروائيين الذين لم يألوا جهداً في تصويرهم لأزمة الهوية سواء كانت هذه الأزمة كانت مرتبطة بالمكان، الشخصيات أو الزمن الروائي ولعلّ المتشائل في تقلبه خير دليل لمواجهة الروائي نفسه لأزمة الهوية. فهي هي أصل وجود الإنسان وهي معناه الواقعي وأزمتها عند الفلسطينيين هي البلية التي لا يمكن التغافل عنها ويحاول الروائي يبرز شخصية المتشائل مضطربة لاستقر على حال واحد وبل إنها تذهب إلى حد التواطؤ مع الكيان الصهيوني وهذا الأمر نفسه يدل على فقدان الهوية وأزمتها في ظل هذا الاحتلال.

٣.٣.٣ إشكالية الهوية

تظهر إشكالية الهوية في شخصية المتشائل وضوحاً جلياً. فهي لم تمتلك لقباً يكون حياً في مواقف الشخصية من الأحداث ومفردة المتشائل نفسها تدلّ على انتماءاته المتناقضة والمضطربة فضلاً عن دوره السلبي والإيجابي الذي يتخذه في الرواية؛ «توجه الهوية بمكوناتها ومرجعياتها حاملها فكرياً وسلوكياً فهي نمط من الإيدئولوجيا تتعين بتعلق الأفعال بمراجع معينة تميز فاعلها عن غيره وهي من حيث الوجود سيروية كما تختلف مع تغير محدداتها زمنياً ومكانياً وثقافياً أي أنها ليست جوهرية بل مرتبطة بالفضاء المنتج لها.» (حمدان، ٢٠١٧: ١٨). «تعد هوية إميل حبيبي من الهويات الإشكالية في تكوينها ونتائجها، فهو عربي مسيحي عاش في مراحل صراعية دامية وشيوعي منحرف في عصبة التحرر الوطني وفي الحزب الشيوعي الإسرائيلي وعضو الكنيست تسعة عشر عاماً ومن دعاة التطبيع وصاحب نتاج حزبي باستقبال ورعاية من الفلسطينيين والإسرائيليين على السواء.» (المصدر نفسه، ٢١). تمثل كلمة خازوق هذا التردد بين الفلسطينيين والصهيونيين خير تمثيل، إذ يقول: «هذا خازوق في كابوس لا محالة. كابوس عن خازوق. فإذا نزلت عن الأخير نفضت الآخر عن صدري فأعود إلى فراشي وأتغطى وأتدقأ. فكيف أتردد؟ أ خوفاً من أن أهوي من هذا العلو الشاهق إلى القاع

الهوة، كبطة ارتداها رصاصه صياط بط، فأتوجع فأموت؟» (حبيبي، ١٩٨٩: ١٥٣). يشير الكاتب إلى الهوية الوهمية والضائعة للفلسطيني بشكل ساخر حيث شبهها بالخازوق ولا ينزل منه بينما يطلب الكل منه أن ينزل لكنه يرفض، بل لعلّ هذا الوهم أصبح يشبه الحقيقة لديه، فإنه معلق عليه ويتجلى هذا التشبث والتعلق في مقطع آخر من الرواية: «فأتاني صديقي القديم، يعقوب وكان حزينا. فصحت به الخازوق يا صديق العمر! قال: كنا نقعد عليه، قلت ولكنني لا أراكم! قال: ولا نحن نرى أحداً. كل وخازوقه وحيدوهذا هو خازوقنا المشترك ومضى» (المصدر نفسه، ٢٠٣).

في هذا القسم تتجلى الفكرة واضحة حيث إنه يقول «كنا نقعد عليه. قلت: ولكنني لا أراكم قال: ولا نحن نرى أحداً» وتدلّ هذه العبارة على أن الكيان الصهيوني قد سلب الفلسطيني هويته وجعله في شخصية وهمية كأنما تمرّ عليه تلك الأحداث في حلم لا يدري هل واقعية أم لا أو لعلّ المراد أنه قد أصبح في وهمية إثر هزيمة العرب والمراد من أن لكل شخص خازوقه الخاص قد يفيد بأن لكل شخص موقف من هذه الهزيمة أيكل شخصية في الرواية تمثل رمزية التيارات والأشخاص الذين كانوا في علاقة مع القضية الفلسطينية وهذا يكثر من وهمية الحدث. «يرفض المتشائل كل هذه الاختيارات ويتشبث بخازوقه. فلا يستطيع أن يكون مواطناً صهيونياً ولا مقاوماً فلسطينياً ويفشل في أن يبني له هويته الخاصة ولم يكن قادراً على الخروج من أزمتة مع قرار واضح فيما يتعلق بالجانب الذي ينتمي إليه.» (فحماوي، ٢٠١١: ٤٩) ولا شك أن الراوي عبّر عن الأمر بشكل ساخر ويتجلى هذا النمط في بعض المفردات أو المصطلحات حيث إنه شبّه وقوعه من الخازوق كوقوع بطّة إرتمها الصياد وكثرة إصرار أصدقائه وذويه لنزوله من الخازوق وتكرار المفردات تظهر فيها دلالة سحرية. «أجمع الدارسون على أن الفكاهة هي ظاهرة إنسانية بحتة، ولئن وجد بعض الناس في الفكاهة مجالاً للتعبير عن فرحه، فلقد وجد فيها آخرون مجالاً للتعبير عن قلقهم ومآسيتهم أو للهروب من واقعهم.» (قزيجة، ١٩٩٨: ١١٠). تظهر لنا مأساوية الحدث في زمن وقوع هذا الجلوس على الخازوق أي والمراد أنه يقع في ليلة الهزيمة وفي الفصل الثالث من الرواية، وهو بعنوان «يعاد الثانية» الذي يأتي في أثناء هزيمة حزيران ١٩٦٧ ويعيدها، «يسجل المتشائل ما وصل إليه من أزمة اغترابية مأساوية لا مثيل لها؛ حيث وجد نفسه في ليلة مظلمة

على خازوق في كابوسوكان هذا بالتحديد ليلة الهزيمة؛ حيث سقط ما كان يأمله من النصر في داخله السري خلال عشرين عاماً، لكنه لم يعد يجد شيئاً مجدداً بعد الهزيمة.» (المناصرة، ٢٠١٣: ١٠٠). نقرأ في الرواية بأن أبا النحس في النهاية يموت على هذا الخازوق ويقول إميل حبيبي حول هذه النقطة: «ولكن حتى ولو كانت هذه هي صورة الواقع الحقيقية، فإننا نفضّل رأس خازوق فوق تراب الوطن على رحاب الغربية كلّها، فقد وجدناها، كلّها، حراباً وفرادشها أشبه فقير هندي؛ رؤوس مسامير أو خوازيق صغيرة وكبيرة على قدر المقام.» (الأسطة، ٢٠٠٨: ١٢٥) وعلى الرغم من كل وسائل الاحتلال والمحاولة لصنع هوية مزوّرة جديدة ومسح الهوية الأصلية لكن الفلسطيني لن ينسى هويته الرئيسة ولأجلها يضحّي بما عنده أي ربّما أنه يقع بعض الأحيان في فتح الكيان كما وجد المتشائل نفسه في تلك الظروف، لكنه وعى بالأخير ورجّح الموت من أجل الهوية بدلاً من الخضوع للظلم والاستبداد.

٤.٣ موقف العرب من فلسطين

كان موقف العرب من القضية الفلسطينية من المواضيع التي تطرّق إليها الأدباء سواء العرب في فلسطين أو حتى في الدول العربية وأتى الروائي في تناوله لهذا البحث بعتاب وطعن جريح يؤخذ كل من يدعي ولم يجرّك أي ساكن تجاه هذه القضية. «ولا ريب في أن نكبة فلسطين هي أكبر نكبة حلّت بالعرب طوال تاريخهم، وأعظم هزّة لضمير الأمة العربيّة، وأقسى محك لاختبار جوهرها وقدرتها على الصّمود، واجتيازها للأزمات، واستحقاقها للحياة والوجود» (أبو حاقّة، ١٩٧٩: ٢٧٩). «لا فضل لعربي على عجمي، إلّا بملوكهم وبتقبع الكوفية، رمز العروبية، حتى إذا فارت دماؤها في عروقهم، تلثّموا بها غبّ الشهادة، فإذا انفجرت دواؤها في عروقهم، أقعوا يرغبون ويزيدون بالحياة الأفضل، حتى إذا تأجّجت دماؤها في عروقهم لعنوا المستوردات الأجنبية سوى الملكية والكوفية و... وقطع الرزق والفسق في عصر التشمير وكان العرب سبقوا إليه حين قالوا: شمر للحرب، وشمر للسلم، وشمر للعمل وشمر للصلاة ولم يقولوا: تقبّع أو تسربل أو تكوكف أو تلثم أو ولول: عاش الملك!» (حبيبي، ١٩٨٩: ١٠٥).

يأتي الروائي هنا بمصطلحات تسترعي انتباه المتلقي، أي أنه يأتي بمفردات نسمعها عن العربي وغيرته المثالية بشكلٍ ساخر مثل «فارت دماؤها، تلثم للشهادة، انفجرتونأججت دماؤها واستخدامه المتكرر لبعض المفردات كالدم والعروق والكوفية بمثابة تسليط الضوء على تلك المظاهر التي تميز بها العربي من سابق الأزمان حتى الآن وافتخر بها أيضاً حيث إنهما من مقوماته الثقافية التي ميزته عن الآخر وحينما يتكلم في تلك الصور يوجّه الكلام في الواقع على من شيّد فلسطين، لكنه لم يستخدم لفظة الفلسطيني، بل يقول العربي وبهذه الطريقة يعم هذه السخرية على كافة العرب ومن اللطيف أنه يأتي بمفردة التشمير وهذه تشي بقدر أكثر من السخرية وكأتما يؤاخذهم على تقاعسهم ويأخذ على قصورهم في قضية فلسطين فأين الذين اشتهروا بالتشمير ولم يشمروا سواعدهم ولم يفعلوا شيئاً لهذه البلية التي وقعت على أبناء جلدتهم وهم الفلسطينيون؟» وكان أدب المقاومة في مواجهته مع زوال الشخصية العربية ساخرًا ولاذعًا. وقف هذا الأدب أمام الظروف الاضطهادية وخاض الحملات والهجمات.» (ابويساني، ١٣٩٢: ٦٥) وهكذا يتجلى غضب الراوي ومأساته وبحق إنه بهذا الأسلوب واستخدام تلك اللغات التي شرحناها في الفقرة الماضية لم يقصد الضحك بل إنّ هذا الاستخدام يشبه الهزل بكثير ولكن السخرية، ذات طبيعة خطائية في حين أن الدعابة فيها شيء أكثر من العلمية. «ورأيتهم في المغيبيحشرون في سيارات النقل العتيقة كما حشروا في يومهم صناديق البطاطا وكوموا الشمندر في سيارات أحدث من السيارات التي ينقلون فيها عائدين إلى مدّهم وقراهم إلا الذين غضّ السيد المقاول الطرف عنهم ليبيتوا ليلتهم في بناء لم يتمّوا بناءه يتسترون بالطوب من الطارقين برد ما قبل الفجرودهمة الشرطة ما قبل الفجر حتى إذا تفتحت أكمام الفجر شمّروا عن أكمامهم وتفتّحوها على الحياة تفتح الياسمين» (حبيبي، ١٩٨٩: ١٠٦). قد يقصد الكاتب من استخدام لفظة «ورأيتهم» ثلاث مرات في ثلاث فقرات متتابعة، عرب الداخل الذين لا بدّ لهم من الخضوع للكيان ويريد القول بأنه يقوم مقام الواعي الناصح الذي كان قد أوحى عليه بعض الأشياء رغم أنه استخدم بعض الكنايات كالشمّر عن الأكمام وتفتح الياسمين وغض الطرف للمقاول وحشر صناديق البطاطا و... كي يبين عجزه عن نهيهم بشكلٍ سخري.

«ولو لا هذا الخيال الشرقي هل استطاع عربك يا معلّم أن يعيشوا في هذه البلاد يوماً واحداً؟ فأنت في كلّ سنة في عيد الاستقلال، ترى العرب يرفعون أعلام الدولة ابتهاجاً، أسبوعاً قبل العيد وأسبوعاً بعد العيد» (حبيبي، ١٩٨٩: ١٣٠). يشير إميل في هذه الفقرة إلى عرب الداخل الذين هم واطفوا الكيان الصهيوني في تقليد بعض أعماله وتقاليدته وليس المقصود التواطؤ مع الكيان في التقاليد فقط بل قد يقصد الذين هم أصبحوا عملاء بحيث إن من يعاني من الجوع ويبحث عن طريق لا بدّ له أن يعامل مقاولاً صهيونياً لكي يحصل على لقمة عيش، لكن مثل هذا الشخص بإمكانه أن لا يحتفل بأعياد الصهاينة ببعض التسامح وغض النظر. «تناول كثيرٌ من الرواة الفلسطينيين بعد توقيع اتفاقية أوسلو قضية العملاء والجواسيس والمتعاونين مع الاحتلال الإسرائيليواختلفوا فيما بينهم في فترة هذه القضية المعقّدة حيث يصير المتعاون أو العميل عدواً لأمتهم وأبناء شعبه» (الصليبي، ٢٠٠٨: ٩٣) نرى الروائي أثناء تطوّقه إلى العرب لم يغفل عن الفلسطينيين بل يشرح للقارئ كيف كانت بعض الأسر الفلسطينية الباقية تتواطؤ مع الكيان رغم أنّه هو العميل الكبير له.

٥.٣ موقف الروائي من الكيان الصهيوني

الشعب الفلسطيني هو من عشق النضال من أجل حريته وهو شعب دأبه الرفض من أجل الكرامة والحرية، يمضي في رسالته ولا تثنيه السجون والسياسات القمعية ويتجلى هذا الأمر حتّى في الأدب من نثر وشعر ورواية... فهي إحدى رسالات الأدب الهامة التي تتّضح للقارئ في هذه الرواية تمام الوضوح وإليك نماذج من الرواية تتناول هذه القضية: «وذلك حين كنت أستمع في ليلة من الليالي الست العفريتية إلى الإذاعة العربية من محطة إسرائيل احتراساً فأتاني صوت المذيع وهو يدعو العرب المهزومين إلى رفع أعلام بيضاء فوق أسطح منازلهم... فصنعت من بياض فراشي علماً أبيض علقته على عصا المكنسة ونصبتها على سطح بيتي في شارع الجبل في حيفاء و...» (حبيبي، ١٩٨٩: ١٥٥).

يمر المتشائل على تلك التهديدات والمخاوف مرور الكرام بعض الأحيان، خاصة في المواقف التي تخصّ هويته أي وطنه بل هو اتخذ بيجامة للاستهزاء من المحتل وتمّ هذا الأمر

أيضاً في حيفاء وهي من المراكز الحساسة وهذا يدلّ على أنه حطّ من شأن عدوه حيث لم يعتن بما يعلنه الكيان أو بالأحرى يسخر ممّا تعلنه الدولة وربما يقول القارئ بأنه فعل ذلك من حمقه ولكن هنا يتبين إبداع استخدام النمط السخري من هذه القضايا. «إن التصدي حين يتجاوز حدود الشجاعة، ليس هناك ما يلجأ إليه غير السخرية. حين تكون عين الظلم مفتوحة على سعتها ويكون المغلوب على أمره شجاعاً فإنه لن يجد في نهاية المطاف ما هو جدي أكثر من السخرية، على اعتبار أن الوضع المواجه برمته هو وضع لا يمكن اعتباره أكثر من مؤقت: كارثة اليوم ومهزلة غداً» (كنفاني، ٢٠١٥: ٤٧). يقول حبيبي: «بعد أن دارت الأرض دورة كاملة أي في هذه الأيام، قرأت في صحفكم عن المذكرة التي قدمها وجهاء الخليل إلى الحاكم العسكري أن يبيح لهم استيراد الحمير من الضفة الشرقية، فقد ندرت. فسأل الصحفي: أين ذهبت حميركم؟ فضحكوا وأخبروه بأن جزاري تل أبيب أنفقوها في صنع النقانق ولكن، أليس صحيحاً أنه حيث يهاجر القوم، تبقى الحمير، وحيث يبقى القوم لا يجد الجزار ما ينقته سوى لحم الحمير؟» (حبيبي، ١٩٨٩: ٥٩). يكشف الكاتب عن معاناة الفلسطيني من تسلّله وعدم ثبوته في تلك الحقبة على حالة واحدة وحتّى في الحال أيضاً حيث إنه فقد هويته وأصبح لعبة للسياسات الصهيونية ولا يستطيع حتّى التردد من منطقة إلى أخرى وهذه من أبسط متطلّبات الإنسان ويردّد الكاتب التلميح والكشف عن هذه الظاهرة بشكل سخري في مواقف كثيرة من الرواية. نأتي بنموذج آخر منها. يطعن الراوي بالعدوّ الصهيوني بشكل ساخر أي إنكم بدّلتم هذه الأرض إلى قفص أو إلى سجن لا يستطيع المرء فيه أن ينبس بينت شفة إلّا وأنتم تتطلّعون عليه فما فلسفة السجن إذن حيث بدّلتم كل الأرض سجنًا. «ولعلّ الرواية أكثر قدرة على الإحاطة بالواقع والكشف عن حركة المجتمع والتعبير عن المشكلات الكبرى بسبب خصائصها النوعية: حجماً وامتداداً وحركة» (المسعودي، ٢٠٠٦: ١٢). «فقال حقاً إنهم هدموا القرى التي ذكرها القوم وشردوا أهلها، ولكن، يا ولدي إنّ في قلوبهم لرأفة لم يحظ بها أجدادنا من الغزاة الذين سبقوهم..» (حبيبي، ١٩٨٩: ٣٥). تمثل هذه العبارة كل من عجز عن مقاومته أمام العدوّ أو من كان من الذين ينظرون إلى إليه بعين الاعتبار والتكبير ويأتي في هذا النصّ أيضاً بسخرية من العدوّ

حيث يصفه بما لا يمتلكه أي بالرأفة والعطف وتظهر سخرية هذا النص من حيث استخدام العكس والقلب «وهو أن يقلب المتكلم جواباً أو سؤالاً لسائل أو يأتي بعكس ما كان ينتظر أن يأتي به، أو بكلام مفاجئ غير متوقع، أو يقلب فكرة أو قصيدة ليسخر من صاحبها، أو ليحولها إلى غرض فكاهي يسخر فيه من العيوب السائدة في المجتمع.» (الهوال، ١٩٨٢: ٤٦) وفعلاً أنه عكس علينا ما هو واقعي فوصف لنا العدو الصهيوني بالعطف والحنان والرأفة وفضله على غزاة العرب وغيرهم الذين احتلوا أرض فلسطين على مرّ العصور والغاية هي السخرية من الصهيونيين ووصف المجتمع رغم أنه لم يغفل عن التحامق، فتحامق المتشائل مانراه في كافة محاولاته وسلوكه.

٦.٣ الحرية وسياسة تكميم الأفواه

كان ومازال الشعب الفلسطيني يبحث عن حريته الضائعة. الحرية التي كان ومازال مطالبوها عرضة لملاحقة الرقيب بأقصى المعاملات والتعدييات وتحكي لنا الرواية أشبع ما رآه الفلسطيني من هتك وإهانة لحرّيته. يذكر الروائي بلغته السّاخرة للقارئ بعض المظاهر التي جسّدت هذا القمع للحرية الاجتماعية، سياسية أو ثقافية.

«ومن أسرار العائلة أنه في زمن خروج الأتراكو دخول الإنجليز، خرج عمّي لجدي من بيته في القرية الفلانية- نحن، مثل الماسون، لا يمكن أن تفتشي أسرارنا العائلية- وكان ينظر إلى الأسفل كعادتنا فاصطدم رأسه بحجرٍ في بيت خراب وكانت جمجمته صلبة، فتدحرج الآخر من مكانه» (حبيبي، ١٩٨٩: ٤٠). هذا المقطع يدلّ على أنه حرم من أعظم ما يمتلكه الجنس البشري ويتميز به عن الأجناس الأخرى وهي الحرية ويحدثنا عن ضيق الحرّية والظروف الاجتماعية بشكل ساخر حيث إنه لا يستطيع حتّى يخرج من بيته بارتياح، يتفقده اليهود أين يذهب وأين لم يذهب ومتى يذهب ولم يذهب وهذه كلّها تعاقبه في حياته اليومية فعليه أن لا يتدخل في شأن من الشؤون حتى في شؤونه الخاصه و «عليه أن يجيب على كل فعل وحركة يقوم بها ولا مقاومة بدون الحرية... لأن المقاومة ولادة باهرة من ولادات الحرية ونتاج من نتائجها» (النايلسي، ١٩٨٧: ١٠٢).

«في المهدي حبستم عويلي، فلما درجت أبحث عن النطق في كلامكم، لم أسمع سوى الهمس. في المدرسة حذرتوني؛ احترس بكلامك! فلما أخبرتكم بأنّ معلمي صديقي، همستم لعله عين عليك! ولما سمعت حكاية الطنطورية، فلعتهم، همستم في أذني احترس بكلامك، فلما لعنوني: احترس بكلامك، إنك تتكلم في منامك فاحترس في منامك و...» (حبيبي، ١٩٨٩: ١٣٩). يوضح لنا إميل الوضع السائد المتدهور تمام الوضوح في الرواية بشكل سخري ويصور لنا مدى شدة هذا الخفقان كما كانت السخرية «أسلوب يهدف إلى الضحك المبطن بنوع من النقد الموجه الهادف إلى وضع اليد على علة ما أو تصحيح وضع فاسد أو توجيه نحو سبيل سوي أو تغيير لحالة اجتماعية أو سياسية فاسدة» (الذبياني، ١٤٣١: ٤٣-٤٤). يسخر الأديب من هذه السياسات التي تحدّد الإنسان في زاوية ضيقة لا يستطيع الخروج منها ومن البدهي أنهم لا يهتمون في أذن طفلهم الذي في المهدي وهو حديث الولادة بل يريد أن يبين شدة أثر هذه السياسات على تصرفات أهله والمجتمع حتّى في البيت بشكل سخري.

«فإذا بالرجل الكبير يرسل عساكره فيداهموني في بسطي في عز الظهر، فيقتادوني الى السجن متهميني على رؤوس الأشهاد بأنني خالفت أمر الإقامة الجبرية وسافرت إلى شفاعمرو أتسوق بطيخاً وإن هذا الفعل يطيح بكيان الدولة. فالذي ينقل البطيخ سراً، ينقل الفجل سراً، وبين الفجل والقنابل اليدوية مجرد لونه الأحمر» (حبيبي، ١٩٨٩: ١٧٨). الاحتلال لا يرحم ولا يعطف عليك ولا يسمح لك بتحريك أي ساكن، سواء كنت من المتعاملين معهم أم من الذين يقفون في وجههم وهذه حال من تعامل معهم بضع سنين فهو لم يتميّز عن الآخرين بتمتعه بالحرية بل هو في مطاردة وملاحقة أكثر منهم وأنظر كيف يصوّر حبيبي شدة الضيق والاختناق مستخدماً السخرية، وسخريته هذه لم تتجلّ بتصويره لانعدام الحرية في المجتمع بل أنّها تكون متعدّدة الملامح حيث فيها مضامين السخرية من الكيان نفسه والوضع الاجتماعي المتدهور فيربط بين هذا الوضع وانعدام الهوية والكيان الصهيوني ويسخر من كلّ تلك القضايا فيصوّر نفسه كشخص يعيش واقعاً مرزياً لا يستطيع أن يكون حرّاً في بيع الخضار كي يحصل على لقمة عيش.

٧.٣ مواجهة المخلوق الفضائي

يصور سعيد في عالمه الخيالي صديقا يفشي بأسراره إليه دائماً وأنه مخلوق فضائي أي نزل من الفضاء السحيق ومن الطريف أنه يذكره أول الرواية ويجعله بمثابة مخاطباً له ومن يسمع كلامه ولا يسخر منه وإذا أمعنا النظر نرى بأنه يتعمد في الإتيان بهذا المخلوق فهو من لا ينكر ما يقوله أبو النحاس بل يتقبله بأحسن القبول. والمراد أن أبا النحاس لم يجد أحداً يخلو به للتعبير عن معاناته ومأساته حيث إن المجتمع البشري عجز عن ذلكوراح يبحث عن كائن غير الإنسان في الفضاء السحيق اللاهائي ويذكره في كثير من الفصول خاصة في بدايتها.

«أما أنا فأول إنسان، على ما أعهد، أنقذه حمار محرن لا يسابق رجلاً ولا يبعث. فأنا إنسان فذ وقد يكون الفضائيون اختاروني على ذلك» (حبيبي، ١٩٨٩: ١٧) استخدم المتشائل كافة طاقات السخرية واللغة الساخرة في تعبيره عن كل ما يريد فهو حينما يتحدث عن المخلوق الفضائي، لم يغفل عن إدماج هذه القضية بالسخرية على الرغم من أن تطرقه نفسه إلى مواجهة مخلوق فضائي يثير السخرية فهو فريد حتى في حمقه وسفاهته. فالتشائل ليس إنساناً عادياً كباقي الناس بل إنه يختلف فيهم في بعض الشؤون وتظهر الخدلة في الفقرة تماماً لأنه فضل نفسه على الآخرين بالصفة الفذة التي تميز بها و«الخدلة هي أن يظهر الإنسان خدقه ومعرفته وكثيراً ما يجره هذا إلى أن يتظاهر بأكثر من قدرته وهذا باب من أبواب الفكاهة والسخرية؛ لأن الخدلة مشوبة في نظر الناس بالغرور أو بالتناقض أو الأدعاء.» (زوين، ٢٠١٨: ٦٧).

«الآن، وأنا في مجوحة من الوقت، أستعيد لقائي الأول برجل الفضاء العجيب، فأعجب من نفسي كيف تركته يمضي دون أن أتعلق بأهدابه وألح عليه أن ينقذني من هذه الحياة المهولة» (حبيبي، ١٩٨٩: ٥٥). قد يدل هذا الاختيار على السأم والضجر من كل من لا يدرك الهوية الفلسطينية وما جرى ويجري لها من بؤس وظلم واضطهاد حيث إنها حرمت من وطنها وإتيان الشاعر بهذا الخطاب وجعله للكائن الفضائي مخاطباً له يعد من أنماط السخرية. من جانب آخر كأنه يغرق في الوضع الفظيع حتى يحتاج موجود من الفضاء كي يفهم مايقوله وهذا الإغراق أيضاً من أنواع استخدام السخرية. نرى في الرواية حقاً أن حبيبي

يستخدم كافة الطاقات الأدبية كي يعبر عما يريد وذكره للكائن الفضائي كأنما يدلّ على فضاة الظروف التي يواجهها الفلسطيني في التعبير عن مأساته وظلمه الذي يعاني منه.

٨.٣ سياسة التثقيف

الأدب والثقافة، أتمن ما تمتلكه الشعوب فإذا العدو أراد أن يحتل بلداً، استهدف ثقافته ومبادئه ولم يستثن الكيان الصهيوني من ذلك حتى أنه كرّس كافة طاقاته كي يخضع الشعب الفلسطيني لتبع أدبه أو أنه كان ينشر بعض الكتب التي لا ثمن لها سوى تطبيع الدعارة والفساد في المجتمع. «لم تكن تعبئة الحكومة المستعمرة تقتصر على الطاقة العسكرية والاقتصادية والاجتماعية، بل تعدت ذلك كله إلى تعبئة عقولهم وقلوبهم بل نفوسهم كلها صغاراً وكباراً بترك التعليم - تعليم اليهود - لليهود أنفسهم ويديرونه كما يشاؤون ويوجهونه كما يريدون، في حين حرمت العرب من ذلك، وسيطرت سيطرة تامة بنفسها على تعليم العرب وقامت كل الأساليب العبرية التي كانت ترمي لاستقلالهم في التعليم.» (ياغي، ١٩٨١: ٦٠). لكن هذا الأدب لم يتزحزح عن مكانه في كافة الظروف وتحكي لنا الرواية عن سياسات التثقيف. «سيقومون لنا كيبوتسات يعتمدون فيها على أمثالي من الشبان الذين يتقنون لغة إنسانية وقال: شالوم! فأجبت بـ "بيس" مؤكداً إنساني. فضحك وقال: سلام، سلام، بالعربية. فانفجرت غمتي» (حبيبي، ١٩٨٩: ٥٦). يشير الروائي في هذه الفقرة إلى سياسة التثقيف التي أجريت على الأمة الفلسطينية وسخريته واضحة تماماً وتتجلى في تكراره لما ألقاه الجندي عليه وإنه سخر من هذا التثقيف حيث لئن الكيان الصهيوني فكرة أرسطقراطيته وعلو شأنه على فلسطين وشعبه حتى اعتبر لغته هي الأسمى والأفضل أو رده باللغة العبرية على الجندي يشير إلى أن بعض الفلسطينيين تأثروا بسياسة التثقيف وهذا أقرب ما يكون من الواقع حيث لا بدّ من أن يكون جسراً للتواصل بين هؤلاء المحتلين كي يستطيعوا أن يتكيفون معهم أو يدافعوا على حقوقهم، لكنّ الروائي لم يغفل عن تنكره الواقعي لهذا التثقيف وذلك من جانب الفلسطينيين الخالص الذين لم يخضعوا للكيان الصهيوني ولم تشرفهم معرفة لغة الآخر حتى ويظهر هذا المعنى ظهوراً واضحاً في بعض فصول الرواية.

«وتغيّر الكثير والكثير في حياة فلسطين المقيمة وفلسطين النازحة وفلسطين المهاجرة. ولكن شيئاً واحداً لم يتغيّر. هو ذلك النزوع الأصيل المتمكن من الخلايا والعروق والمفاصل، إلى المعرفة والثقافة والارتياح وما هذا شعراً ولا عاطفةً ولا خيالاً. إنه واقع ملموس عرفه العدو قبل الصديق، ولذلك سارع العدو إلى القضاء على الهوية الثقافية للأقلية العربية التي بقيت في فلسطين رغم إرادته.» (الخطيب، ١٩٩٦: ١٥١). «فيما سألتهم بالعربية، كشفوا أمرى. فبالإنجليزية أثرت شكوكهم. فرحت أستعيد ما أذكره من كلمات عبرية حتى تبادل إلى ذهني أن السؤال عن الوقت بالعبرية هو: "ماشاعاه"، يوماً إلى فتاة قرب سينما ارمون فشمتم عورة أمي بالعربية الفصحى» (حبيبي، ١٩٨٩: ٦٤). تدلّ الفقرة على أنّ التثقيف الصهيوني لم يؤثّر في الفلسطيني رغم استخدامه أعلى النظم وكافة الإمكانيات لمسح الثقافة الفلسطينية التي إحدى عناصرها الأساسية اللغة، بل بقي سافراً في ذلك والفلسطيني الأصيل لا يخضع لهذه السياسات ولم يغفل عنها فتبقى اللغة الفلسطينية هي لغته الأولى رغم فرض الكيان على العربي أن يكتب ويتخرج من الجامعة مستخدماً اللغة العبرية ومن اللطيف أن الأدب الفلسطيني رغم هذا الاضطهاد والتثقيف الذي أجراه الكيان الصهيوني عليه، لا يكتفي بعدم التأثر من هذه السياسات بل إنه أثّر حتى في الروايات الصهيونية بحيث إنها تظهر ضعيفة أمام هذا الأدب كما تطرق غسان كنفاني إلى هذا الموضوع قائلاً: «مقابل أدب المقاومة العربي في فلسطين المحتلة يقف الأدب الصهيوني جزءاً من حركة الثقافة السياسية في الأرض المحتلة وواحد من الضغوط الأساسية التي تتصدى لأدب المقاومة العربي هناك، لا للتأثير عليه وسحقه فقط، بل أيضاً لتشويهه على الصعيد الداخلي ومحوه على صعيد الدعاية الخارجية» (كنفاني، ٢٠١٥: ٧١). صحيح بأن الروائي أوضح للقارئ سياسات التثقيف ومحاولة انهيار الثقافة الفلسطينية من قبل الكيان الصهيوني، لكن إذا أمعنا النظر في الرواية هناك نقطة لطيفة أخرى وهي انتماء المتشائل إلى التراث والأدب العربي ومما لا شك فيه أنّه يدلّ هذا الأمر على أنّ السياسات التثقيفية لم تكن ناجحة رغم سعيها الدؤوب في هذا الأمر «فإنّ العلاقة بين التراث والأدب علاقة بحتة فلا يقبل الأديب التراث كلّ ولا يرفضه كلّ بل يتم تفاعل بينهما حتى يفجر الطاقات الكامنة في النصوص التراثية لينتج الأدب الأصيل ويوظفها حسب موقف

الأديب الشعوري» (عبدي، ١٤٣٠: ٥٨) من ملامح تطرّق المتشائل إلى التراث العربي: «ثم حكم «أستاذ العربية» عليّ بأن أقعد بعد الدوام أنسخ قصيدة امرئ القيس: «سما لك شوق بعد ما كان أقصراً/ وحلّت سليمي بطن ظبي فعرعرا.» (حبيبي، ١٩٨٩: ٤٨). تطرّق إميل إلى التراث من خلال الشّخصيّة الرئيسيّة وهذا يدلّ على أن الشّخصيّة الرئيسيّة بقيت صامدة لم تنس تراثها، فهاهي تستشهد بأشعار شعراء كامرئ القيس، أبي نواس، ابن عربي، توفيق زياد، محمود درويش و... من الأدباء والشعراء ومن النقاط الهامة هي أن الاستدعاء لم يكتف بالشّعر بل تعدّى ذلك إلى الحديث حول الشّخصيّات التاريخيّة، الأدبية كالسلطان قطر، صلاح الدّين الأيوبي، الرحالة ابن جبير الأندلسي، وليد بن هشام و... فكل ذلك دلالة على التصاق الشّخصيّة الفلسطينيّة بالتراث العربي وفشل السياسات الصهيونية في سياساته التثقيفيّة.

٩.٣ الوضع الاجتماعي

كان وما زال الأدب يعكس أوضاع المجتمع وأفكاره وكلّ ما يحتمنه من أحداث ووقائع فنستطيع أن ندرس ظروف بعض المجتمعات وما يرتبط بها من خلال الأدب سواء كان شعراً، نثراً وما إليه من الأنواع الأدبية حيث إن الأدب الملتزم يقدم لنا حقيقة الأمر ورأينا ذلك مثلاً في أشعار الشعراء العباسيين في وصفهم الترف والمجون والتيارات وتشرب بعضهم الفلاسف والمذاهب المختلفة كلّه يدلّ على وضعهم الاجتماعي الرّاهن «ويرى كلود دوشيه أن كلّ ما في النصّ إنّما يصدر عن فعلٍ من أفعال المجتمع» (مسمح، ٢٠٠٧: ٧). المتشائل من الروايات الفلسطينيّة التي تكشف لمحات من الوضع الاجتماعي في فلسطين. عانى الشعب الفلسطيني من ظروف اجتماعية صعبة لا نطاق أبداً حيث إن تخطيط الكيان قرّر أن يبقى الشعب الفلسطيني في وضع متردّ وهذا ما يوضح تمام الوضوح في الرواية حيث إنه يصوّر لنا الفقر واضطرار الفلسطينيين للتواطؤ مع الكيان الصهيوني وذلك للحصول على لقمة عيش فقط والتشرّد والنقل من مكان إلى مكان حيث تضيق بهم الأرض ذرعاً ولم يهمل الروائي التطرّق الى أي نوع من هذه الظروف القاسية حيث أتت مأساوية لاذعة.

١٠.٣ الفقرر والبطالة

«ولقد رأيتهم، في ساحة العجمي بيافا، شبابا في عمر التمر، من غزة وجباليا وبيت لاهية وبيت حنون ودير البلح وخان يونس ورفح، يتمايلون على سيارة السيد المقاول كتمايل شواهد القبور فوق إخوتهم الشهداء في مقابر غزة، فأمنت بأن الأحياء يستطيعون هم أيضاً، أن يقوا في وطنهم!» (حبيبي، ١٩٨٩: ١٠٦). البطالة حقاً من أبرز المشاكل الاجتماعية التي لم يسلم منها الشعب الفلسطيني، فلم يقتصر الكيان الصهيوني مهمته في تضليل هذا الشعب على الشؤون السياسية والثقافية بل كرس جهده لخلق شتى المعضلات والمشاكل الاجتماعية. فحينما لا يمتلك الشخص لقمة عيش يتنعم بها فكيف يفكر في خوض سياسة تحرير صعبة لا تتجهز بالإمكانيات الأولية، فهو من جانب مسلوب الوطن ومن جانب آخر عليه أن يدي بدوله في اكتساب العيش والوصول إلى ما يحتاجه من قوته اليومي فأين يذهب؟ فلا بد من المعاملة مع الكيان ونرى إميل أنه يصور لنا هذا الأمر أي ف«تمايلهم هذا حول سيارة المقاول» ليس بمعنى أنهم يودون التواصل مع المقاول من صميم القلب بل لا بد لهم من ذلك.

«قال؛ لا، لا.. أريد شهادة تثبت أن هذا المتاع هو متاعكولم تسرقه. فأسقط في يدي. فأعدت البطاقة إلى جيب المؤخرة. فأسقط في المؤخرة؛ متى حفظ الناس شهادات تثبت أن متاع بيتهم هو متاع بيتهم ولم يسرقوه؟ فخفت على بنطلوني» (المصدر نفسه، ١٢٢). يتجلى في الشاهد أن المتشائل يُتهم بالسرقة من قبل الصهيونيين بحيث إنهم يعترضوا له في الطريق ويظنون أنه سرق ما كان يحمله وهذا يعني أن الظروف الاجتماعية كانت قاسية لمستوى لا يستطيع الفلسطيني فيه أن يتنعم حتى بأدنى الإمكانيات، أي إذا أراد ذلك فلا يستطيع الوصول إليه وإذا أُلح أن يصل إليه فعليه أن يسرق حيث لم تكن هناك فرصة عمل ولا تجارة يقوم بها الفلسطيني كي يكيف نفسه مع الظروف ومن اللطيف أن ما كان يحمله المتشائل من متاع هو كان قليلاً بقدر أنه نقله راجلاً! وهذا أيضاً يساعدنا على إدراكنا مأساوية الحدث وصعوبة الأمور والعبارة لا تخلو من طابع سخري، يتضح في استخدام الروائي على بعض العبارات منها خوفه على بنطلونه حيث إنه لا يمتلك حتى ما أدنى من البنطلون في تلك الظروف.

١١.٣ دسّ التفرقة والتّفاق

تعدّ هذه الرواية من أهم الروايات حقاً حيث إن الكاتب تطرّق بأسلوبه الخاص إلى كل ما يخصّ الفلسطيني بشكل مأساوي ساخر وقدم لنا في كل فصول الكتاب أو في كلّ فقرة منه لمحات حول السياسة السائدة والآخر والحريّة وما شابهها. «وقد اغتصب الشعب الفلسطيني من أهله، وطرده أكثرهم خارج أوطانهم، وبقيت فيها أقلية عربية مواطنة تحت سيادة الكيان الصّهيوني وقد مارست هذه تخطيطاً علمياً ومدروساً لإذابة الأقلية العربية في البلاد وتهديدها والقضاء على معالمها الفلسطينية، بمصادرة الأراضي وحقق الحريات و...» (النابلسي، ١٩٨٧: ١٣٨). إذن لم يفعل الكاتب عن الوضع الاجتماعي المتأزم الذي أحدثه الكيان الغاصب والشاهد الأخير يرتبط بإحدى هذه المشاكل والمعضلات وهي تبيد وحدة الفلسطينيين بحيث إن السياسات الصهيونية قررت أن يبقى الفلسطيني في هذا الحصار متأثراً بالوشاية والخوف من العيون التي تنقل الأخبار للصّهانية. فأخذ الكيان يطرد الفلسطينيين من أراضيهم وأخذ ينقذ خطّاته فيما يتعلّق بإحياء التراث الفلسطيني و قبول كيانه الممقوت بواسطة القلائل المرتزقة الذين أخضعوا للكيان الصّهيوني وراحوا يلبّون نداءه لنشر التّفاق وتبيد الوحدة.

«ولما لم يبق لي والدي، رحمه الله، من متاع الدنيا غير الحذر، فقد جعلت أحمل إليها هذا الميراث صبيحة وعشية. فقلت لها: قال والدي: رحمه الله، أن الناس يأكلون الناس، فحاشا أن تثق بمن حولك من الناس، إنما عليك أن تسيء الظن بكل الناس، حتى ولو كانوا إخوتك من بطن أمك ومن ظهر أبيك. فإذا لم يأكلوك فقد كانوا يستطيعون أن يأكلوك» (حبيبي، ١٩٨٩: ١١٨). من مأساويات الحدث أن الكيان حاول أن يبدّد الثقة والوحدة من بين الفلسطينيين فبغض النظر من أن المتشائل هو من المتعاملين مع الكيان وقد ورث هذا التعامل من أبيه، فإنه يوصيه بالاحتفاظ من كافة الناس لا من الصّهانية فقط وإضافة إلى ذلك في الفقرة المذكورة دلالة واضحة على الضيق السياسي والاجتماعي. ذكر المؤلف هذه العبارات بشكل سخري حيث إنه سخر من أبناء جلدته في تمسكهم بالمقاول وتشبيهم بشواهد القبور والسخرية واضحة تماماً في وصية يوجّهها إليه أبوه حيث إنه يعتبر هذه الوصية كالميراث فجعلها نصب أعينه وأن الناس بإمكانهم أن يأكلوه لأنهم يستطيعون ذلك.

تكشف الرواية لنا لمحة عن الوضع الاجتماعي وذلك من خلال عرض الأحداث التي تقع فيها لكن من الصور التي تزيد من السخرية هي أن المتشائل رغم تقلبه وتعامله مع الكيان الصهيوني، لكنه يتخذ محل الناقد البصير والنبه الفاضل في نهي الناس عن التعامل معه والصهيونيين لكن الروائي في الأصل لم يقصد في خروج المتشائل من هذه الحالة ودخوله للجدّ والتزمّت إثارة الضحك والدعابة، بل هدفه إيضاح الحالة والظروف القاسية في المجتمع الفلسطيني.

٤. النتائج

ومن النتائج التي توصل إليها هذا المقال، هي أنه:

١. ظهرت السخرية بتمام الوضوح في الرواية كلّها من العنوان حتّى تسمية الفصول المختلفة وذلك في الأسلوب والمعنى معاً بحيث إن الكاتب يظهر لنا الشخصيات وخاصة شخصيّة المتشائل وسلوكاته مقترنة بطابع سخرى وتناول الروائي المضامين التي أراد أن يبيّن من خلالها الظروف القاسية للفلسطيني ويدلي بدلوه وهي ما ترتبط بالمعنى في الواقع وتظهر لنا مستخدمة طابعاً سخرياً مريراً.

٢. لم يقصد الكاتب استعداد أسباب الضحك والدعابة والفكاهة للقارئ، بل استخدم السخرية لوصف الوضع الاجتماعي والسياسي والثقافي السائد في فلسطين كما أنه رصد موقف الفلسطيني من هذه القضية ولذلك كلّ سطر من هذه الرواية وكلّ عبارة منها تحمل في طياتها وصفاً للواقع المرزى فرأينا كيف يوضّح لنا الروائي سياسة التثقيف والوضع الاجتماعي وأزمة الهوية الفلسطينية بحيث إنّها بمثابة سجلّ للواقع الفلسطيني المتأزم تكشف لنا تفاصيل هذا الواقع بالوصف الدقيق والشامل للأحداث وذلك من منظور سخرى لاذع.

٣. صحيح بأن الكاتب صوّر لنا صمود الشعب الفلسطيني الباسل وشدّة تمسّكه وانتمائه إلى وطنه، لكنه لم يغفل عن تصوير المأساة التي عانى منها هذا الشعب من ظلم واضطهاد وتهميش وضياع وهذا أكثر ما يكون قريباً من الواقع ومن الميزات المهمّة للرواية، فإنّ هذه الرواية بمثابة نافذة مفتوحة على واقع القضية الفلسطينية ومن أبرز مواصفاتها هي أن

الروائي لم يغرق في جوٍّ موهوم من الأحاسيس يسعى لتبيين الإيجابيات مثل المقاومة الفلسطينية و صمود الشعب الفلسطيني، بل يحاول أن يتناول القضايا من حيث الواقع ضمن أن الصمود والبطولة الفلسطينية تظهر للقارئ.

٤. كشفت السخرية مأساوية الأحداث التي جرت ومازالت تجري في فلسطين بحيث إن بعض المواضيع التي تطرق إليها الكاتب تجعل القارئ في مأساة وحزن وهذا الأمر يدل على براعة الروائي في تناوله للأحداث بشكل وصفي وهذامن أسباب نجاح هذه الرواية في العالم ولم تخل الرواية من المباحث السوداوية التي تبلغ غاية الألم والمرارة التي عاشها الشعب الفلسطيني.

المصادر

الكتب

القرآن الكريم.

- أبو حاقّة، أحمد (١٩٧٩)، الالتزام في الشعر العربي، دار العلم للملايين، بيروت: ط ١.
- ابويساني، حسين (١٣٩٢)، سميح القاسم و شعر معاصر فلسطين، دار سروش للنشر، ط ١.
- الأسطة، عادل (٢٠٠٨)، أدب المقاومة من تفاؤل البدايات إلى خيبة النهايات، مؤسسة فلسطين للثقافة، سورية، دمشق - ط ٢.
- بازي، محمد (٢٠١٢)، العنوان في الثقافة العربية، التشكيل ومسالك التأويل - ط ١، الرباط: منشورات دار الخلاف.
- حبيبي، إميل (١٩٨٩)، الوقائع الغربية في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل، الطبعة الثانية، بيروت: دار ابن خلدون.
- الخطيب، حسام (١٩٩٦)، النقد الأدبي في الوطن الفلسطيني والشتات، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- ، عماد علي (٢٠١٤)، هوية العنونة في الشعر السعودي المعاصر، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان - ط ١.
- زيادي، وفاء (٢٠١١)، المرأة الفلسطينية بين اللجوء والعودة في رواية الوقائع الغربية في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل لإميل حبيبي، الطبعة الأولى، فلسطين: بديل/ المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين.

ملاحح السخرية في رواية المتشائل لإميل حبيبي ١٩١

شرف، عبدالعزيز (١٩٩٢)، الأدب الفكاهي، الطبعة الأولى، مصر: الشركة المصرية العالمية للنشر - لوجمان.

طه، نعمان محمد أمين (١٩٧٩)، السخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري - ط١، القاهرة: دار التوفيقية للطباعة.

عبد الحليم، محمد حسين (١٩٨٨)، السخرية في أدب الجاحظ - طبعة ١، الجماهيرية الليبية؛ الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان.

غراب، سعيد أحمد (٢٠١٠)، السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين، طبعة ١، مصر: دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع.

قريجة، رياض (١٩٩٨)، الفكاهة في الأدب الأندلسي - ط١، بيروت: المكتبة العصرية للطباعة والنشر.

كنفاني، غسان (٢٠١٥)، أدب المقاومة في فلسطين المحتلة، قبرص: دار منشورات الرمال.

محمد حسين، عبد الحليم (١٩٨٨)، السخرية في أدب الجاحظ - ط١، الجماهيرية الليبية؛ الدار الجماهيرية للنشر و التوزيع و الإعلان.

المسعودي، كريم مهدي (٢٠٠٦)، الواقع الفلسطيني في الرواية (دراسة نقدية في أدب غسان كنفاني وجبرا إبراهيم جبرا) - ط١، دمشق: دار النمر للطباعة والنشر والتوزيع.

المناصرة، حسين (٢٠٠٢)، المرأة وعلاقتها بالآخر في الرواية العربية الفلوطسطينية - ط١، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

المناصرة، حسين (٢٠١٣)، فردوس الأرض المغتصبة - ط١، بيروت: دار الفارابي للنشر.

النابلسي، شاعر (١٩٨٧)، معجون التراب، دراسة في شعر وفكر محمود درويش - ط١، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

الحوال، حامد عبده (١٩٨٢)، السخرية في أدب المازني، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ياغي، هاشم (١٩٨١)، القصة القصيرة في فلسطين والأردن - ط٢، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

الرسائل الجامعية

توفيق، قحام (٢٠١٧)، أزمة الهوية في الرواية الجزائرية المعاصرة، أطروحة دكتوراه، جامعة محمد لمين دباغين - سطيف ٢، الجمهورية الجزائرية.

حمدان، يوسف حسين محمود (٢٠٠٧)، الهوية وتجلياتها السردية في أعمال إميل حبيبي، رسالة الماجستير، الجامعة الأردنية، كلية الدراسات العليا.

١٩٢ آفاق الحضارة الإسلامية، السنة ٢٢، العدد ٢، خريف وشتاء ١٤٤٠ هـ.ق

الذبياني، مساعد بن سعد بن ضحيان (١٤٣١)، السخرية في شعر عبد الله البردوني، رسالة الماجستير، السعودية.

الصليبي، حسين محمد حسين (٢٠٠٨)، الرواية الفلسطينية وتجلياتها الفنية والموضوعية في الأرض المحتلة بعد إتفاكية أوسلو، رسالة لنيل الماجستير في اللغة والأدب، الجامعة الإسلامية غزة.

مسح، أيمن سليمان (٢٠٠٧)، الاتجاه الاجتماعي في الشعر الفلسطيني بين الإنتفاضتين، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية بغزة.

المقالات

حافظ، صبري (١٩٩٦)، في الذاكرة؛ إميل حبيبي وسرد إحياء الذاكرة الفلسطينية، الدراسات الفلسطينية، العدد ٧ والعشرين، صص ١١٠-١٣٣.

زوين، حيدر (٢٠١٨)، السخرية في شعر أحمد صافي النجفي، مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية، العام ٥، العدد ٤٢، صص ٥٧-٧٦.

شكري، مسعود و روشنفكر، كبرى و پرويني، خليل و ميرزائي، فرامرز (١٣٩٦)، صورة الآخر الإسرائيلي في رواية المتشائل، مجلة إضاءات نقدية، العدد ٢٦، صص ٨٥-١٠٩.

عبدي، صلاح الدين (١٤٣٠)، استدعاء التراث في أدب زكريا تامر، دراسات في العلوم الإنسانية، سنة ١٦، العدد ٣، صص ٥٧-٦٩.

العزوزي، شهيدة (١٤٣٩)، السخرية في التراث العربي، آفاق الثقافة والتراث، ربيع، العدد ١٠٠، صص ٣٨-٥٠.

فحموي، عايدة (٢٠١١)، قراءة في رواية المتشائل مأساة شعب وأزمة هوية؛ رواية الوعي والوعي المضاد، ضمن كتاب موسوعة أبحاث ودراسات في الأدب الفلسطيني الحديث (١) الأدب المحلي، إعداد وتحرير ياسين كتاني، الطبعة الأولى، باقة الغربية: مجمع القاسمي للغة العربية.

مسبوق، سيد مهدي، مظفري، رسول فتحي (١٤٣٧ هـ.ق)، «تجليات السخرية وأساليبها في نهج البلاغة»، الخطب المائة الأولى أنموذجاً، مجلة آفاق الحضارة الإسلامية، السنة ١٩، العدد ١، صص ٩٥-١٢١.

الموسى، خليل (١٤٣٣)، درجات السخرية في الشعر العربي، مجلة المعرفة، العدد ٥٨٦، صص ٣٥-٤٥.
محمود، حسني (١٩٨٤)، هاجس العودة في قصص إميل حبيبي (قراءات نقدية في قصتي التورية و السلطعون)، مجلة فصول، العدد ٤، صص ٢٠٥-٢٢٢.